

## وليمة لأعشاب البحر

### نص يمالئ الماركسية ولكنه لا يتورع عن الرمي بها الى البحر

كثر الكلام في رواية "وليمة لأعشاب البحر" وتعددت الآراء في شأنها بين التحريم والتحليل، الاستحسان والاستنكار، الفنية والقصدية وما الى ذلك. . . وقد أثارت مقالة الأستاذ رجاء النقاش المنشورة في صحيفتكم الغراء "الآثر السلبي للادب الحزبي في رواية الوليمة"<sup>١</sup> غريزتي النقدية فارتأيت الرد والتعقيب ولو انني ممن يرون ان الرواية اخذت فوق حظها من الاضواء.

نحن نعلم ان كل عمل ادبي تحكمه رؤية ما : فنية، اجتماعية، اقتصادية او سياسية، والعمل الادبي الناجح هو ذلك الذي يستطيع ان يصوغ رؤياه بقالب مموه بعيد عن التقريرية والمباشرة. ونعلم ايضا ان الجدل لم يحسم بعد في مسألة النظرية الغربية التي تقول بموت المؤلف، فنحن منذ خطواتنا الاولى في فن الرواية ما نزال نقرأ بعض سيرة صاحبها. ألم نقرأ معاناة وصراع طه حسين في "المعذبون في الارض" - كي لا نقول الايام - ؟ او قلق وحيرة نجيب محفوظ في "الثلاثية" ! او دهشة وصدمة توفيق الحكيم في "عصفور من الشرق" ؟. وحيثا ألم يكتب إميل حبيبي بعض مأساته الشخصية عندما كتب "المتشائل" ؟ وهاني الراهب عندما كتب "المهزومون" ؟ او الماغوط في "الارجوحة" او يوسف حبشي الاشقر في "الظل والصدى" ؟. لذا فان اتكاء الكاتب على حوادث شخصية لا يعيب الرواية، كما ان تبنيها لرؤية سياسية معينة امر مشروع، إذ انه لا يكاد يخلو عمل ادبي ناجح من مثل هذه الرؤيا، بما في ذلك الكتاب الذين استشهد فيهم الاستاذ النقاش ( غوركي وتوليستوي وتشيكوف). وانما العيب الرئيسي في العمل الروائي هو الشخصيات المنمطة او بالاحرى تلك التي لا يتعدى دورها دور المشجب الذي تعلق عليه الافكار والنظريات. أو تلك التي لا تتطور ولا تتغير مواقفها رغم تألب الظروف والاحداث عليها كأن يبقى الثائر ثائراً او الشريف شريفا والنذل ندلاً مهما مر على احدهم من مواقف وازمان.

ليست رواية "وليمة لأعشاب البحر" عملاً فنياً فريداً بل إنه قد سبقها وتقدم عليها الكثير من الاعمال التي تضاهيها وتتفوق عليها، ولا هي اول عمل ادبي ينتهك المقدس ويثير حفيظة التقليديين. فمنذ ان خط طه حسين "الادب الجاهلي" والساحة الادبية مليئة بمثل هذه السجلات، ونحن بعد لم ننس قضية الدكتور حامد ابو زيد ولا الصادق النيهوم ولا غنائية مرسيل خليفة. إلا ان الاستاذ النقاش أثار في الرواية ناحية لا علاقة لها بالتحليل والتحريم، مسألة طاولت فنية الرواية وإنسانية صاحبها. لقد رأى الاستاذ النقاش في الرواية مجرد دعاية حزبية رخيصة وقصر رؤيتها الى مستوى المنشور السياسي وقال في نماذجها "لا توجد شخصية يتعاطف معها الكاتب إلا الشخصيات الماركسية ولا توجد فكرة يحترمها الكاتب إلا الفكرة الماركسية المتشددة".

لا غرو ان في الرواية الكثير من المواقف التي تخنق الحدث كمشهد "محضر رسمي" الذي استشهد فيه الناقد، والكثير من الجمل التقريرية التي تعظ وتبشر وتشد على مواقف معينة لاثبات فكرة ما، وهذا عيب كبير في الرواية. إلا أن كون الرواية مختصرة الى المنشور الحزبي فمسألة لا بد من إعادة التدقيق في شأنها

تؤرخ الرواية ادبياً لسيرة خلية حزبية ماركسية فاشلة من خلال سردها لحياة شخصيتين هما مهيار الباهلي

ومهدي جواد, شخصيتان لم تحصدا على مدى عمرهما إلا الخيبات. فكلاهما اضطهد وسجن وعذب وحكم عليه بالموت ونجا باعجوبة, وبعد طول معاناة ينتهي بهما الامر مدرسين في قرية بونه الجزائرية التي أملا ان تكون محطة جديدة لهما يبدآن مسيرتهما الحياتية من جديد. ولكن تشابه البيئتين , العراقية والجزائرية, من حيث كون كل منهما ترسخ تحت نير التعفن السلطوي والديني والاجتماعي, قادهما الى اسوأ ما كانت عليه حالهما سابقا فينتهي بهما الامر مغيبين, إذ يضيع مهيار ولا يعرف له أثر ويقدم مهدي جواد على الانتحار برمي نفسه في البحر عند شواطئ بونه.

طبيعي ان تثير مأساة كهذه مشاعر الشفقة والعطف في ذهن المتلقى, وقد يكون الكاتب قد سرد وبالح في وصف طوباوية شخصياته ولكنه لم يتعصب لها في المطلق. وما التعاطف الذي تثيره الاحداث إلا من باب التعاطف المشفق لا تعاطف المعجب الذي يتمثل نموذجا يحتذى. لم يمثل حيد حيدر بطله نموذجا يختصر خصائص شعب او عقيدة فيكون الحذوة والمثال بل صورته مهزوما ومخيبا. لقد هشم الكاتب هذه الشخصيات وسحبها من الحياة وألقى بها في نهاية المطاف إما الى البحر وإما إلى الضياع. وهو ان تعاطف معها في البداية إلا انه ما لبث ان اتهمها وادانها بالسلبية (الهروب الى الجزائر, عدم القيام باي رد فعل ايجابي في حادثتي المطعم ومداهمة شقة مهدي جواد)

لقد اختار حيدر حيدر لبطله الماركسي أفسى انواع الميئات , الانتحار تدمير الذات. والانتحار في مخيلتنا الجمعية امر مدان يسقط عن صاحبه صفة التعاطف ويساويه بالعدمية. بل هو اكثر من ذلك, انه جريمة تجر على صاحبها لعنة النبذ والحرمان من الانضواء في صفوف الصالحين. لذا فإن حيدر حيدر يدين ويعاقب ويحكم على الميت باستحالة القيامة. ولو ان الكاتب كان داعية ماركسيا لكان اختار لشخصيته ميتة أبهى واكثر إشراقا من الانتحار, أجل لقد مالاً النص الماركسية ولكنه لم يلبث ان نفض يده منه واعلن عجزها وعبثيتها, ولم تكن على مدى نصف قرن أكثر من وليمة لأعشاب البحر

يعيب النقاش على صاحب الرواية شخصية نموجه مهيار الباهلي فيقول: " انها ليست نموذجا ممتازا بل تثير النفور واحيانا الخجل فمهيار الماركسي المتعصب يستغل فلة المومس ولا يحاول ان يرتفع بها او ينقذها من المستنقع الذي تعيش فيه . . . " لعل في هذه المقولة نفيا للاتهام الذي وجهه الكاتب للروائي , فها هو يسف ببطله النموذجي الى الدرك السفلي, وينزع عنه قدسيته ويعريه من كل ماضيه المجاهد. بذلك تسقط تهمة التعاطف المطلق عن الكاتب. أما من الناحية الفنية فقد تطورت الشخصية تطورا تصاعديا وكان انزلاقها الى الاسفاف طبيعيا بعد كل ما عانتها من خيبات وانكسار امانى. فمهيار الباهلي المصاب في امانيه الهارب من العراق الى الجزائر المنهزم لا يمكن ان يحقق نبلا وإلا كانت الشخصية نمطية ومصطنعة ومقولة. فهو ضحية, كما ان فلة هي الأخرى ضحية. واذ تسقط فلة ومهيار في عملية جنسية دنسة فانما هو دليل على اتحادهما بالدنس المشترك, السلبية والانهازم. لقد ظل مهيار يقاوم إغراءات فلة حتى كان انهزامه الاخير في المقهى على ايدي المتدينين والسلطويين. عندها وصلت خيباته حدها الاقصى وكان الالتحام الجسدي تعبيراً سرياليا عن الذوبان والتلاشي في العدمية.

اما عن الشخصية الثانية " مهدي جواد والتي يطلب فيها الناقد ان تكون شخصية ايجابية فاعلة, فإنها تخون فنياتها إن فعلت. فكيف نتوقع من شخصية مسحوقة مهشمة منسحبة من الحياة ان تقوم بعمل بطولي فاعل؟ فلو ان الروائي جعل بطله يقوم بعمل ايجابي فيغير مسار التاريخ والشخصيات, بدل ان ينتحر لكان بطلا

افتعاليا فاشلا إذ ان الشخصية المنهزمة المسحوقة لا تستطيع ان تكون اداة خلاص. لقد همشتها الانهزامات وقضت على كل نبيل وبطولي فيها. لذلك فانني ارى في النهاية انسجاما مع طرح الرواية وتاكيدا على ما تقول به الوحدة العضوية في الادب

يقرر الاستاذ النقاش جازما ان الكاتب لم يتعاطف مع ايّ من شخصياته إلا الماركسية، وفي قراءة، ولو غير متأنية، يبدو الكاتب متعاطفا مع اشد شخصياته سلبية: المومس فلة مثلا. فلة ممثلة في الرواية كضحية من الباب الاول، ضحية المجتمع الذكوري والتكاذب الوطني والظروف السياسية. والنداء الجسدي. " فلة بو عناب قتل الفرنسيون اسرتها في مجزرة ال٤٥ فتربت في بيت عمته. بعد ان كبرت وتزوجت في سن العشرين وانجبت ولدا. الزوج كان سكييرا، فاسقا يهوى المومسات، طلقته ورحلت الى العاصمة وهناك عاشت حياة غير سوية. عملت ساقية في بار يرتاده الضباط الفرنسيون .

لقد احبت ضابطا فرنسيا برتية كابتن كان ياخذها معه في آخر الليل الى منزله وذات مساء فوجئت باربعة ضباط من زملائه يدخلون البيت ويسكرون وفي اواخر المساء يرغمها ان تنام معهم : لقد ضاجعوني جماعيا. كان الامر كريها ومقززا

بعد اندلاع الثورة وجدت نفسي في خلية سرية من خلايا جيش التحرير  
- أنا وجميلة بو عزة كنا في خلية واحدة ومعا وضعنا حقيبة القنابل في بار الضباط.  
تقول في موقع آخر: " هذا ما ورثته من الثورة ! . . . حصيلة عمر ضاع في الريح يا خويا مهدي . . . وتزيد:  
تصور انني فتحت لهم بيتي على مصراعيه. نتحدث . نسمع الموسيقى. أحيانا يأتون ومعهم صديقاتهم . نشرب . نرقص. ولكنني لم انج منهم. فضحوني في المدينة. اشاعوا عني: مستهترّة واباحية وصاحبة بانسيون للقوادة. " ٣ "

هذه هي فلة بكلام الرواية، "مزيج مستهترّة مع مناضلة خائبة . امرأة حرة. . . ". صحيح انها ليست الصورة المثالية التي عودتنا عليها المخيلة العربية التقليدية التي تنتظر من المرأة ان تتلقى الظلم فتحنع وتبقى على نقائها، ولكنها شخصية مثيرة للشفقة حتى في ادرك مشهد جنسي لها وهي تمارس العادة السرية لم يكن الراوي قاضيا او جلادا

وماذا عن لا لا فضيلة المرأة الصابرة المكابرة التي ارتضت شخصية مثل يزيد زوجا واصطبرت على العيش مع رجل يمارس عنجهيته وصلفه وحماقاته على اولادها من زوجها الاول المقاوم البطل لاشيء إلا لانها انثى لا يحق لها تنفس الحياة إلا من خلال رجل. كذلك القول في ام البطل الرئيسي في الرواية واصطبارها على والده وشذوذاته! حتى منار الفتاة المتفرجة التي ترفض تعلم العربية هي شخصية محببه يشيع وجودها البهجة والحبور. في مثل هذه الشخصيات انحازت الرواية بصراحة الى الفئة الاشد استضعافا في مجتمعنا فئة النساء بشقيها المثالي والمنحط. . . ولم تكن المرأة هي الشخصية الوحيدة التي انحاز اليها الكاتب بل نراه ينحاز الى كثير من الشخصيات التاريخية التي لم تحمل فكرا ماركسيا بل حملت هما إنسانيا عاما كمثل الامام علي والصحابه الاوائل والزنج والقرامطة . . . إلا ان تعاطف الكاتب الاكبر كان مع الشعب الجزائري وشهدائه الذين قاوموا الفرنسيين بالفطرة البكر: " انظري يا فلة هؤلاء الجياع والمقملين والحفاة يقدمون كل شيء كل شيء يا فلة! الطعام واللباس والدم والمأوى والحيوانات. هؤلاء البحر ونحن السمك"

لقد سيطرت مشاعر العجز والخيبة والعبثية على معظم شخصيات الرواية , الحزبية منها وغير الحزبية، ونعت الماركسية من خلال نعي بطليها مهيار ومهدي. وقد تضافرت جميع العناصر المكونة للرواية لخدمة هذا

الحدث : فاللغة جنازوية ناعبة والصور الشعرية سوداوية والحدث السردى ينتقل من فاجعة الى اخرى فلا يترك القارئ إلا وقد جره معه الى ما يريده الكاتب من يأس واحباط. ولست ادري إذا ما كان اسم صاحب الرواية "حيدر حيدر", إسما مستعارا اختاره الكاتب ليواكب الحركية الابداعية للرواية " ٣ "

إلا ان الكاتب لم يعدم رؤية إرهاصات لنهضة محتملة نواتها هذا الجيل الجديد المتمثل بأسيا لخضر, وارثة النقاء الوطني البكر, النقية من كل تلوث حزبي او سلطوي او ديني. أسيا لخضر ابنة المناضل النقي الذي لم تفسده سياسة ولا غريزة سلطوية. أسيا النقية المنفتحة على الآخر التي تقرأ "سيمون دي بوفوار" "٤" وتصر في الوقت ذاته على الانتماء لجنورها من خلال إصرارها على تعلم اللغة العربية . أسيا لخضر النبض الوحيد الفاعل في الرواية المتفوق على الماركسي المخضرم العتيد. أسيا المتصدية لحراس التقاليد الذين هاجموها وحببها عند الشاطئ. وراعاة السلطوي الظالم من خلال تصديها لزوج امها وايقافها له عند حده, والمحاورة الواثقة التي تتصدى للطبيب المتفرنج وتخرس تجحجه. أسيا هي الوعد الذي يبشرنا به الكاتب فهل تصدق الرؤيا؟! . . . !

لقد صور حيدر حيدر رؤياه وعلينا احترامها سواء وافقناه الرأي او خالفناه, فهو لا يدعي كتابة رواية اخلاقية واذ نعلم ان الكاتب كتب روايته قبل ستة عشر سنة من هذا التاريخ يتأكد لنا ان رؤيته كانت صادقة فهي قد قامت بواجبها وتنبأت بالحالة الانحطاطية التي نعيشها اليوم, والوضع الجزائري على وجه الخصوص. لا يعني ان الرواية مثالية وخالية من اي هنات بل هنالك الكثير الكثير الذي يجب قوله في هذا المجال ولكنه ليس من ضمن اختصاص هذه المقالة

هوامش

- (١) - الاثر السلبي للادب الحزبي في رواية "الوليمة", رجاء النقاش, الشرق, عدد: ٨٤ , الاربعاء ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٠, ص: ١٦
- (٢) - وليمة لاعشاب البحر, حيدر حيدر, دار امواج للطباعة والنشر, بيروت, لبنان ط: ٥ , ٢٠٠٠ , عدة صفحات
- (٣) - إشارة الى الشخصية الكريلائية حيدر
- (٤) - دي بوفوار (سيمون), ١٩٠٨ - . . . , كاتبة وروائية فرنسية, من اشد دعاة تحرير المرأة. من اهم اعمالها "الجنس الآخر" و"عم صباحا ايها الحزن". زوجة الكاتب الوجودي جان بول سارتر

نجمة حبيب

٢٠٠٠/١١/٢٤